البغض الأول

للقصصي الروسي أنطون شيخوف

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

جلس جماعة من المصطافين في كوخ بين الحشائش الخضر وكانت الليلة قمراء ونافذة الكوخ مفتوحة ينفذ منها ضياء القمر. وكانت روائح النبات تفوح في المكان والأصدقاء يتحدثون أحاديث مختلفة، وتناول الحديث ذكر النساء والحب فقص كل منهم أقاصيص كثيرة حتى تجاوز عدد هذه الأقاصيص المائة أقصوصة

وكان في ركن من الكوخ ضابط لزم الصمت من أول الليلة وظل يتثاءب؛ فلما جاء دوره صاح:

« ليس في التحدث عن الحب غرابة، فكل النساء قد خلقن للحب، وليس لأحدكم أن يفاخر بالحب؛ فهل منكم من جرب البغض الحق؟ هل عرف أحدكم الكراهية؟ »

لم يجبه أحد، واستمر الضابط يقول: « أنا قد جربت هذا البغض فقد كرهتني فتاة فدرست في شخصي أعراض الكراهية الأولى؛ وإنما قلت الكراهية الأولى كما يقال الحب الأول. ولكن هذه التجربة الغريبة قد حدثت في عهد من العمر لم تكن لدي فيه فكرة واضحة عن الحب والبغض فقد كنت لا أتجاوز الثامنة من العمر » وليس هذا مطلب القصة بل مطلبها فتاة فأنصتوا:

خرجت من المدرسة في أصيل يوم من الأيام وجلست أمام مكتبي في الغرفة التي أذاكر فيها، وكانت مربيتي — وهي فتاة حديثة عهد بالمدرسة — تطل من النافذة

نظرت إلي فتبينت على وجهها الارتباك، وسألتني وهي لا تكاد تعي ما تقول: هل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم

قالت: وماذا نتنفس نحن؟

فقلت: ثاني أكسيد الكربون؟

قالت: أصبت، وثاني أكسيد الكربون غاز خانق يوجد في الكهوف وفي بعض المياه، وقد رأيت كهفاً بالقرب من مدينة نابولي يكثر فيه هذا الغاز، ورأيت كلباً ألقي فيه فمات لساعته

قالت لي مربيتي بعد هذا الحديث: إن أبي وأمي ليسا بالمنزل، وإن أخي يشكو الصداع وأنه ذهب للطبيب وأن ليس بالمنزل غيري وغيرها، ثم سألتني وهي لا تزال تطل من النافذة على الأشجار وما يليها من الفضاء:

ما هو الأفق؟

فقلت: هو الخط الوهمي الذي عنده تلتقي السماء بالأرض

وعادت فسألتني وهي لا تزال تنظر إلى الأشجار: وهل الأشجار تتنفس الأكسجين؟

فقلت: نعم، ثم رأيت في يدها ورقة مطوية قد شدت عليها أناملها ونظرها يرتد عن الأشجار وقالت: في إيطاليا كهف بالقرب من نابولي يكثر فيه هذا الغاز الخانق، هل تقول: إن الأفق هو الذي تلتقي عنده السماء بالأرض؟

وكانت وهي تقول ذلك كالحالمة، وتجلى اضطرابها الشديد، ثم مشت ذهاباً وإياباً في الغرفة بحالة تدل على القلق وقالت لي: إقرأ درس الرياضة حتى أعود بعد نصف ساعة

خرجت مربيتي من الغرفة، ورأيتها وهي تمشي في الحديقة بخطوات مخطوات المحموم، وكان وجهها أكثر احمراراً من عهدي به، واضطرابها جلي إلى درجة استلفتت نظري، فقلت في نفسي: إلى أين تذهب يا ترى؟

وطويت الكتاب وقلت: أتبعها وكنت أحسبها ستقهز غياب أمي فرصة وتسرق بعض الفواكه من أشجار الحديقة. ولكنها لم تفعل بل تجاوزت كوخ البواب وخرجت من المنزل، وتبعتها مختفياً وراء الأشجار حتى وصلت إلى البحيرة. وهنالك... هنالك وجدت أخي الذي قالت إنه مريض وأنه ذاهب إلى الطبيب

لم يكن أخي عند ما شاهدته مريضاً بل وقف عند ما رآها وكأن قوة غريبة دفعت كلا منهما إلى الآخر فتعانقا وقبلها وقبلته وفهمت من كل حركاتها وإن كنت صغيراً أن هذه أول مرة فعلت فيها مثل ذلك

وكان وراءها أكمة عالية فنابا خلفها وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بخجل شديد. ولم أر أكثر من ذلك، ولكن لكوني متقدماً في الذكاء عمن كانوا في مثل عمري فقد فكرت في الأمر وقلت لا بد من الاستفادة منه. ثم ابتسمت ابتسامة المنتصر، وذلك لأن في معرفة الأسرار لذة لا يستهان بها خصوصاً إذا كانت أسرار أخي الذي له نفوذ بالمنزل، ومربيتي التي لها نفوذ عليّ

لما عادت مربيتي إلى الغرفة كالعادة نظرت إلى وجهها الجميل وعينيها البراقتين، وكان السر الذي أكتمه يكاد يمزقني فقلت: لقد عرفت! لقد رأيت!

قالت: «ما الذي رأيته، وما الذي عرفته؟»

فقلت: «رأيت أخي يقبلك وأنت تقبلينه عند البحيرة»

عند ذلك وجدت النار تكاد تتقد في عينيها، وجلست خائرة القوى على المقعد ولم تنطق بحرف، وأعدت جملتي وزدت عليها: «إنتظري حتى أخبر أمي»

فنظرت إليّ باهتمام ورعب؛ ثم لما تبينت أني لن أفعل أمسكت بذراعي وهي في حالة شديدة من اليأس، وقالت بصوت خافت: «هذا لا يليق ... أتوسل إليك ...! بالله لا تقل شيئاً! إن الشرفاء لا يتجسسون ... أتوسل إليك ...!»

لقد كانت مربيتي المسكينة تخاف من أمي، وهذا سبب من أسباب فزعها، ولكن أهم هذه الأسباب هو افتضاح حبها الأول. وأنتم بلا ريب تقدرون شعورها في هذه الحال. وفي الصباح عرفت أنها لم تنم طول ليلتها لأني رأيت حول عينيها هالة زرقاء مسودة، ورأيت على عينيها علامة السهاد. ولما وجدتها وحدها بعد ذلك في غرفتي قلت: «لقد عرفت، لقد رأيت!»

فنظرت إليّ ولم تجب، ثم لما رأيت أخي وحده قلت له هذا القول، فلم يكن ليخاف خوف المربية، بل شتمني فخفت أنا... ولم أعد أجرؤ على تكرار كلمتي أمامه. أما المربية فقد أردت الاستفادة من معرفة سرها، فصرت لا أذاكر، وصرت أعبث في غرفتي كما أشاء فلا تشكو إلى أمي ولا تظهر لي الضجر. وحافظت على تلقيني دروسي متى أردت وعلى شرح ما أطلب شرحه، وهي تتغاضى وتلزم الوقار. ولكن مضى أسبوع وضاق صدري بالسر فجلست مرة مع أمي وكانت معنا المربية وأخي فقلت لأمي: «لقد عرفت! لقد رأيت!» فبدا الفزع والرعب على وجه المربية وبدا الغضب على وجه أخي ولكني لم أزد ولم تسألني أمي.

ومن ذلك اليوم صرت أرى نظرات المقت والكراهية الجنونية على عيني المربية وصارت تقرض أسنانها كالذئب كلما رأتني؛ وبدأت أعرف كيف تكون كراهية الشياطين.

وفي يوم من الأيام كانت تلقنني الدرس فسمعتها تقول: «إنني أمقتك! ليتك تعرف مقدار كرهي لك أيها الحيوان» ثم زادت على ذلك: «إنني لا أخاطبك ولكنني أعيد جملة من رواية.»

كانت بعد ذلك تأتي إلى غرفة نومي وتنظر إليّ وأنا بين النوم واليقظة نظرة مقت؛ وصارت الحالة تزداد حتى أمسكتني من ذراعي مرة من المرار وقالت: «إنني أكرهك وما تمنيت لإنسان من الشر مثل الذي أتمناه لك وأريد أن تفهم ذلك.»

كان ذلك في الليل، وكان ضياء القمر الشاحب ينير الغرفة، ونظرت إلى عينيها فسررت أولاً، لأن هذا الشيء جديد، ثم خفت فصرخت بصوت عال، ثم عزمت على أن أخبر أمي؛ على أني لو كنت أعرف جوابها لما عزمت هذا العزم الأحمق

لقد أجابتني: «وما شأنك أنت؟ أنت صغير فلماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟»

وكانت أمي فاضلة رقيقة الإحساس؛ وكانت تتجنب ما يؤدي إلى الفضيحة فلم تطرد مربيتي في الحال بل انتظرت مدة كانت تتصرف فيها عن المربية شيئاً فشيئاً ثم أخرجتها بعد مدة من المنزل لسبب آخر انتحلته. وأنا لا أزال أذكر تلك النظرة التي رمقتني بها المربية وهي تغادر المنزل

بعد ذلك بعهد طويل صارت مربيتي زوجة لأخي وهي فلانة التي تعرفونها جيداً. وتغيرت ملامحي فلم أعد أشبه ذلك الغلام الذي كنته، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال تنظر إليّ إلى اليوم نظرة بعيدة عن الود، وتعاملني كلما زرت أخي معاملة غير معاملة الأصهار، وما ذلك إلا لأن البغض الأول كالحب الأول ليس من السهل أن يزول

عبد اللطيف النشاشيبي

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)